التطورات الفكرية في العهد العثماني ١٨٣٩-١٩١٤

الباحثة م.د كوثر عبد الحسن عبد الله الأسدي

المقدمة :

أن دراسة التطورات الفكرية في العراق وتأثيرها بحركة الإصلاح في الدولة العثمانية منذ عام ١٨٣٩ المتمثل بصدور خط كلخانة الذي يُعد أول دستور عثماني لتنظيم الأوضاع العامة في الدولة حتى انقلاب ١٩٠٨ وإعلان الدستور العثماني من الدراسات المهمة، رغم أن هذه التطورات كانت بطيئة ومتعثرة الا أنها أسهمت في تطور المجتمع العراقي بجوانبه السياسية والفكرية وقد شمل الإصلاح عدة مجالات أبرزها:-

أولاً- الطباعة.

جاءت بوادر اصلاح شؤون الدولة على الطراز الأوربي في عهد السلطان أحمد الثالث(١٧٠٣-١٧٣٠)[١]اذ قام بأرسال بعثات الى أوربا وكان لهذه البعثات الأثر الأكبر في اقتباس مظاهر الحضارة الغربية ومنها الطباعة ،ففي عام ١٧٢٦ تم أنشاء مطبعة اسطنبول والتي كان لها أهمية كبيرة في الحياة الفكرية العربية،كما نشطت في عهده حركة ترجمة الكتب الى التركية[٢].

واقتصرت الطباعة في النصف الأول من القرن التاسع عشر على المطابع الحجرية البدائية ،وكانت لبنان أول دول المشرق العربي عرفت الطباعة [٣]،اما النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطوراً في الجانب الطباعي فقد ظهرت أول مطبعة حجرية عام ١٨٤١ قامت بنشر العديد من المؤلفات والنشرات[٤].

ويُعد الوالي مدحت باشا(١٨٦٩-١٨٧٢)[٥]أول الولاة الذين ادخلوا الطباعة الحديثة الى العراق فقام بجلب المطبعة من باريس، وكانت تدار بالبخار وتنتج(٣٥٠٠)ورقة في الساعة سميت بمطبعة (الولاية) والتي أدت دوراً في خلق الوعي الفكري والاجتماعي في العراق[٦]،وكان لها دور كبير في طباعة العديد من الكتب العامة والدينية وكتب التراث[٧]،كما صدر عنها ما يقارب (٢٢) كتاب خلال المدة(١٨٧٥-١٩١١)[٨].

وقد ازدادت في نهاية القرن التاسع عشر عدد المطابع وعدد العاملين فيها وعدد الكتب المطبوعة ،كما شهدت دخول العديد من الآلات الحديثة[٩].

وكانت لبنان من الأقاليم العربية التي شهدت تطوراً واسعاً في مجال طباعة الكتب ومنها الأدبية والتراثية والدينية ،وقد بلغ عدد الكتب التي طبعت في مطبعة الجامعة الانجيلية في بيروت عام ١٨٨١ ما يقارب (٥٧٥٠٠) مجلد علمي وأدبي[١٠]،ومن بين هذه الكتب كتب ناصيف اليازجي[١١]،كما طبعت عدد من المؤلفات العراقية في بلاد الشام منها (دائرة المعارف) للكاتب بطرس البستاني[١٢].

وقد تأثرت الفئة المثقفة من أهل العراق بالأفكار الصادرة من مصر وبلاد الشام[١٣]،وأوربا ،والعاملين في المجلات والصحف، وأسهمت في نقل الأفكار والقيم العصرية الجديدة،وكان منهم انستاس ماري الكرملي[١٤].

ومن أبرز المطابع التي أسست مطبعة الرياض في عام ١٩١٠ ومطبعة نينوى في العام نفسه والصنايع عام ١٩١١ ومطبعة عبد الله الزهير عام ١٩١٢[١٥].

ثانياً- الصحافة.

كانت الوقائع المصرية أولى الصحف التي صدرت والتي انشائها محمد علي باشا في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٢٨[١٦]،وكانت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، وتولى الأشراف عليها كلوت بك وصدرت باللغتين العربية والتركية[١٧]،كما صدرت عدة صحف سياسية ومجلات علمية ،وأول صحيفة هي حديقة الأخبار التي أصدرها خليل الخوري عام ١٨٥٧[١٨].

كانت بعض الصحف تخص الجانب العلمي منها مجلة (مجموع الفوائد) التي صدرت في بيروت عام ١٨٥١ ومجلة يعسوب الطب عام ١٨٦٥ في القاهرة[١٩]،وكانت تطبع في مطابع بولاق[٢٠].

وقد صدر أول قانون للصحافة في العهد العثماني بأسم نظام المطابع والمطبوعات عام ١٨٦٤ ،وبدأ العمل به في عام ١٨٦٥ على كافة ولايات الدولة العثمانية ويتضمن (٣٥) مادة[٢١].

كما أصدر بطرس البستاني جريدة نفير سورية وكان صدورها خلال الحرب الأهلية اللبنانية وكانت على شكل رسائل وطنية تتضمن نصائح لأنهاء النزاع الطائفي، وتعد أول جريدة سياسية تدعو الى الوحدة العربية[٢٢]،وفي العام نفسه أصدر أحمد فارس الشدياق جريدة الجوائب، والتي كانت تمثل أهم روافد نقل الفكر الأوربي والحضارة الغربية الى العالم العربي[٢٣].

ومن الصحف التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر صحيفة وادي النيل عام ١٨٦٦ أصدرها عبد الله أبو السعود ،وجريدة نزهة الأفكار التي أصدرها إبراهيم المويلحي[٢٤] ومحمد عثمان جلال[٢٥] عام ١٨٦٩، وفي عام ١٨٧٦ أصدر سليم تقلا واخيه بشارة تقلا جريدة الأهرام والتي تعد مدرسة للصحفيين[٢٦]، وفي العام نفسه صدرت مجلة المقتطف والتي أصبح لها حضور لدى المثقفين العراقيين[٢٧].

وتزامناً مع حركة الإصلاح في الدولة العثمانية أصدرت حكومة الباب العالي عام ١٨٧٥ منشور التنظيمات الصحفية لتنظيم الصحف والمطبوعات [٢٨].

أصدرت الإرسالية التبشيرية الكاثوليكية جريدة أخبار الإنجيل في عام ١٨٦٣ ،كما صدرت جريدة البشير في أيلول عام ١٨٧٠، وكانت تمثل جامعة القديس يوسف[٢٩].

اما في حلب فقد تأسست جريدة الفرات عام ١٨٦٩ ، وكذلك ظهرت العديد من الصحف والمجلات في بيروت عام ١٩٠٨ بلغ عددها (٥٦) جريدة و(٣٩) مجلة[٣٠].

وأصدرت جمعية مصر الفتاة جريدة مصر الفتاة باللغتين العربية والفرنسية عام ١٨٧٩[٣١]،فضلاً عن المجلات العلمية فقد أصدرت الجمعية العلمية السورية عام ١٨٦٨ مجلة جموع العلوم، ومجلة الطبيب التي صدرت أوائل عام ١٨٧٨ للطبيب جورج يوسف، وقد أسهمت في تطور الوعي الصحي للمواطنين[٣٢].

كما صدرت في لبنان مجلة الحنان عام ١٨٧٠ والتي كان لها الأثر في تأجيج الحس القومي العراقي في كل من بغداد والبصرة والموصل[٣٣].

اما في العراق فأنه لم يعرف الصحافة الا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر[٣٤]،وكان لكل ولاية صحيفتها الرسمية ،فقد صدرت جريدة الزوراء في ١٥ حزيران ١٨٦٩ في ولاية بغداد وقد قدمت جريدة الزوراء معلومات كثيرة في كافة المجالات[٣٥]،كما أسهمت جريدة الزوراء في تعريف العراقيين بالثورة الفرنسية ومبادئها التحررية ونورت أذهان العراقيين بمعلومات عن الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية[٣٦].

وفي ولاية الموصل صدرت صحيفة الموصل في ٢٥ حزيران ١٨٨٥ ،وكذلك في البصرة كانت صحيفة البصرة التي صدرت في ٢٦ أيار ١٨٨٦،وكانت باللغتين العربية والتركية[٣٧].

كما أن إبراهيم اليازجي أصدر مجلتي البيان والعيناء عام ١٨٨٣[٣٨]،وتشير الإحصائيات أنه خلال (١٩٠٩-١٩١٣) صدرت (٤٤) صحيفة في بغداد و(١٢) في البصرة ،اما في الموصل فقد صدرت (٣) صحف ،وفي كربلاء صحيفة واحدة[٣٩].

اما المجلات (١٩١٠-١٩١٤) صدرت (١٦) مجلة منها (١٤) مجلة في بغداد،ومجلة واحدة في كركوك،والنجف مجلة واحدة أيضاً[٤٠].

الخـــــاتمة

مَثل صدور خط كلخانة عام ١٨٣٩ البداية الحقيقية لحركة الإصلاح العثماني، كما أن أبرز الإنجازات التي حققتها حركة الإصلاح في الدولة العثمانية تعد اللبنة الأولى في البناء الذي استمر حتى قيام الحرب العالمية الأولى.

كما أن الإسهامات الفكرية لبعض المثقفين له دور في تطور الفكر السياسي في الولايات العربية، وقد نشطت الحركة الفكرية بصورة واضحة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وقد انتجت الحركة الفكرية بتفاعلها مع العوامل السياسية الى ظهور فئة مثقفة منهم المحامين والأطباء والأدباء الذين عبروا عن طموحاتهم في الصحافة والأعمال الأدبية.

الهـــــــوامش

١- السلطان أحمد الثالث: ولد عام ١٦٧٣ في اسطنبول ويعود نسبه الى ارطغول، وتولى الخلافة وعمره(٣٢) سنة، وقد كان متأثراً بإصلاحات بطرس الأول قيصر روسيا، توفى في عام ١٧٣٦. ينظر: علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط،بيروت،٢٠١٠.

٢- اكمل الدين أحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، مج ٢، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٣٦٧.

٣- وهي مطبعة دير قزحيا والتي ظهرت عام ١٦١٠ وطبع فيها كتاب المزامير. ينظر: خليل صابان، تاريخ الطباعة في المشرق العربي ،ألقاهرة ١٩٥٨، ص ٢٩.

٤- أحمد سراج الدين، الحركة التربوية وتطورها في سورية ولبنان خلال القرن ١٩، مجلة الأبحاث ، ج٣، أيلول ١٩٥١، بيروت، ص ٣٢٨.

٥- مدحت باشا: وهو أحمد شفيق مدحت باشا (١٨٢٢-١٨٨٢)،سياسي عثماني نشأ في بلغاريا، كان والده قاضياً، تعلم اللغة العربية والفارسية وحفظ القرآن الكريم وعرف بمولاته للغرب،تولى مناصب عديدة منها رئاسة الوزراء ،ووزير العدل ، وخدم في ولاية بغداد وولاية دمشق،وكذلك عمل كاتباً في مجلس الصدر الأعظم في بداية حياته. ينظر: إسماعيل أحمد ياغي، سياسة مدحت باشا تجاه الخليج العربي ١٨٦٩-١٨٧٢، دار المنظومة ،مج ١٤، العدد ٢٧، البحرين، ١٩٩٥.

٦- نمير طه ياسين، بدايات التحديث في العراق ١٨٠٠-١٩١٤، رسالة ماجستير غير منشورة،المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٤، ص ١٢٦.

٧- مجلة لغة العرب،ج٧، لبنان، كانون الثاني ١٩١٣، ص ٣٠٥.

٨- جميل موسى النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد في عهد الوالي مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني ١٨٦٩- ١٩١٧، ط٢، بغداد، ٢٠٠١، ص ٣٨٥.

٩- شهاب أحمد الحميد، تاريخ الطباعة في العراق، بغداد ، ١٩٧٦، ص ٢٠٤.

١٠- مجلة المقتطف ، مج ٧، ج ٨، تشرين الثاني ١٨٨١، ص ٤٦٥.

١١- ناصيف اليازجي(١٨٠٠-١٨٧١)، ولد في قرية كفر شيما في لبنان ،وعمل في المطبعة المخلصية في بيروت بتصحيح المطبوعات لغوياً وله مؤلفات عديدة منها مجمع البحرين ، مجموع الأدب في فنون العرب. ينظر: عيسى ميخائيل سابا، الشيخ ناصيف اليازجي ، القاهرة، ١٩٦٥.

١٢- عبد الرزاق أحمد النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق ١٩٠٨-١٩٣٢، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠، ص ٤٤.

١٣- المصدر نفسه، ص ٣٧.
١٤- انستاس ماري الكرملي: ولد في بغداد عام ١٨٦٦ ، وأتم دراسته الابتدائية والثانوية فيها،واكمل دراسته الجامعية في كلية القديس يوسف ثم سافر الى بلجيكا ثم الى فرنسا لدراسة اللاهوتية بعدها عاد الى بغداد، له العديد من المطبوعات. ينظر: كوركيس عواد ، الأب انستاس ماري الكرملي حياته ومؤلفاته ١٨٦٦-١٩٤٧، بغداد، ١٩٦٠.
١٥- نمير طه ياسين، المصدر السابق، ص ٢١٢.
١٦- إبراهيم عبده، تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨-١٩٤٢، القاهرة، ١٩٤٢، ص ٢٦٤.
١٧- محمد عصفور سلمان الأموي، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي ١٨٣٩-١٩٠٨، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ٢٠٠٥، ص ٣٠٣.
١٨- جميل بيضون وآخرون، تاريخ العرب الحديث، ط١، الأردن، ١٩٩٢، ص ١٤٥.
١٩- فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج٣، بيروت، ١٩١٣، ص ٤٧.
٢٠- مطبعة بولاق: تأسست عام ١٨٢١ ثم ادخلت عليها الآلات الحديثة وطبع بها العديد من الكتب بمختلف الاختصاصات،وفي عام ١٩١٣ اعتبرت أكبر مطبعة في العالم. ينظر: عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية ، ج٣، ص ١٣٦-١٤٨.
٢١- ميشال الغريب، الصحافة اللبنانية والعربية تاريخها قوانينها مقارنتها بالصحافة الأجنبية ، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٣.
٢٢- عماد الصالح، أحمد فارس الشدياق، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠٦.
٢٣- المصدر نفسه.
٢٤- إبراهيم المويلحي: ولد في القاهرة وكان في عائلة ثرية تولى منذ صغره اعمال والده التجارية،وقد تسبب في خسارة الأموال،أحب الأدب والشعر منذ صغره، وأسس جمعية المعارف عام ١٨٦٩ ومطبعة صغيرة لطباعة الكتب بعدها سافر الى فرنسا وايطاليا ،واصدر جريدة الأتحاد ثم جريدة الأنباء وبعدها جريدة مصباح الشرق عام ١٩٠٢ وبقي في مصر وفاته ١٩٠٦. ينظر: فيليب دي طرازي،المصدر السابق، ص ٢٧٥-٢٧٨.
٢٥- محمد عثمان جلال: ولد في مدينة بني سويف عام ١٨٢٩ ، واكمل دراسته في القاهرة ويعد من واضعي أسس القصة الحديثة والرواية المسرحية في مصر،ومن أهم اعماله العيون اليواقظ ،توفى عام ١٨٩٨. ينظر: فيليب دي طرازي،المصدر السابق، ص ٢٩٣-٢٩٩.
٢٦- المصدر نفسه، ص ٥٣.
٢٧- عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص ٥٠.

٢٨- إبراهيم عبده، المصدر السابق، ص ٢٦٤.
٢٩- نادر العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة ،ج ١، د.ت، ص ٢٤١.
٣٠- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، الكويت، ٢٠٠٩، ص ٢٤٢.
٣١- أنور الجندي، الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية مصر ١٩٦٢،ص ٤٩.
٣٢- فيليب دي طرازي،المصدر السابق، ص ٤٧.
٣٣- محمد نجم عبد الله الجبوري، علاقات العراق الثقافية ببلاد الشام ١٨٣١- ١٩١٨، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة المستنصرية، ١٩٩٩، ص ١٩٣.
٣٤- فيصل محمد الأرحم، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨-١٩١٤، الموصل، ١٩٧٥، ص ١٤١.
٣٥- فهمي المدرس، مقالات سياسية وتاريخية واجتماعية ،ج١، بغداد، ١٩٣١، ص ٢٩.
٣٦- منير بكر التكريتي، الزوراء نشؤها وتطورها الفاظها وأساليبها ،بغداد ١٩٦٩، ص ٧.
٣٧- استمرت جريدة الزوراء بالصدور حتى ١١ أذار ١٩١٧ واحتجبت جريدة البصرة عن الصدور في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٨٤. ينظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية ،بغداد، ١٩٥٧، ص ٢٥.
٣٨- جميل بيضون وآخرون، المصدر السابق، ص ١٤٥.
٣٩- عمر إبراهيم الشلال، التطورات الاقتصادية والاجتماعية في العراق ١٨٦٩- ١٩١٤، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٩، ص ٢٤٨.
٤٠- أمين المميز، بغداد كما عرفتها شذرات من الذكريات ،بغداد، ١٩٨٥، ص ١٧٥.

قائمة المصادر :

اولا : الرسائل والاطاريح

١-عبد الرزاق أحمد النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق ١٩٠٨-١٩٣٢، اطروحة دكتوراه غير منشوره، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠.

٢- عمر إبراهيم الشلال، التطورات الاقتصادية والاجتماعية في العراق ١٨٦٩-١٩١٤، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد، كلية ألآداب ٢٠٠٩

٣- محمد نجم عبد الله الجبوري، علاقات العراق الثقافية ببلاد الشام ١٨٣١- ١٩١٨، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة المستنصرية، ١٩٩٩

٤- نمير طه ياسين، بدايات التحديث في العراق ١٨٠٠-١٩١٤، رسالة ماجستير غير منشورة،المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٤

ثانيا : الكتب :

١- اكمل الدين أحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، مج ٢، القاهرة، ٢٠١٠.

٢- إبراهيم عبده، تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨-١٩٤٢، القاهرة، ١٩٤٢

٣- أنور الجندي، الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية مصر ١٩٦٢.

٤- أمين المميز، بغداد كما عرفتها شذرات من الذكريات ،بغداد، ١٩٨٥

٥- جميل بيضون وآخرون، تاريخ العرب الحديث، ط١، الأردن، ١٩٩٢

٦- جميل موسى النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد في عهد الوالي مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني ١٨٦٩- ١٩١٧، ط٢، بغداد، ٢٠٠١.

٧- خليل صابان، تاريخ الطباعة في المشرق العربي ،ألقاهرة ١٩٥٨، ص ٢٩.

٨- شهاب أحمد الحميد، تاريخ الطباعة في العراق، بغداد ، ١٩٧٦.

٩- عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية ، ج٣

١٠- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث، الكويت، ٢٠٠٩.

١١- علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط،بيروت،٢٠١٠.

١٢- عماد الصالح، أحمد فارس الشدياق، بيروت، ١٩٨٠

١٣- عيسى ميخائيل سابا، الشيخ ناصيف اليازجي ، القاهرة، ١٩٦٥.

١٤- فهمي المدرس، مقالات سياسية وتاريخية واجتماعية ،ج١، بغداد، ١٩٣١.

١٥- فيصل محمد الأرحم، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨-١٩١٤، الموصل، ١٩٧٥.
١٦ - فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج٣، بيروت، ١٩١٣
١٧ - كوركيس عواد ، الأب انستاس ماري الكرملي حياته ومؤلفاته ١٨٦٦-١٩٤٧، بغداد، ١٩٦٠.
١٨- منير بكر التكريتي، الزوراء نشؤها وتطورها الفاظها وأساليبها ،بغداد .١٩٦٩
١٩ - ميشال الغريب، الصحافة اللبنانية والعربية تاريخها قوانينها مقارنتها بالصحافة الأجنبية ، بيروت، ١٩٨٢.

ثالثا : البحوث والمجلات :

١- سراج الدين، الحركة التربوية وتطورها في سورية ولبنان خلال القرن ١٩، مجلة الأبحاث ، ج٣، أيلول ١٩٥١، بيروت.
٢- إسماعيل أحمد ياغي، سياسة مدحت باشا تجاه الخليج العربي ١٨٦٩-١٨٧٢، دار المنظومة ،مج ١٤، العدد ٢٧، البحرين، ١٩٩٥.

رابعا : المجلات :

١- مجلة لغة العرب،ج٧، لبنان، كانون الثاني ١٩١٣،
٢- مجلة المقتطف ، مج ٧، ج ٨، تشرين الثاني ١٨٨١